الفصل الثانى

حروب بلاد العرب

الوهابيون فى الإسلام كالپيوريتان من المسيحيين البروتستنت . وقد سموا بهذا الاسم نسبة إلى مؤسس مذهبهم محمد بن عبد الوهاب الذى ولد فى الحوطة[١] من أعمال نجد حوالى ١٧٠٠ م . وهم قوم شديدو الزهد والتقشف ، يحرمون التحلى بالذهب ولبس الحرير ، ويرون أن المساجد الفخمة أثر من آثار الوثنية ؛ ولا يحرمون الخمر فحسب ، بل يحرمون معها جميع المنبهات ؛ ويعتقدون أن شرب القهوة والدخان إثم وضلال . وهم لا يكتفون بالدعوة إلى عقيدتهم ؛ بل تراهم على استعداد للجهاد فى سبيلها ، وكأنما كانوا هم الذين عناهم بتلر Butler بقوله : « إنهم يثبتون صحة عقائدهم بالطعنات والضربات الرسولية » ، ومعقلهم بلاد العرب .

وبينما كان محمد على والمماليك يقتتلان على السيادة فى مصر ، كانت مكة ويثرب موطن الحرمين الشريفين ، والمدينتان المقدستان عند كافة المسلمين ، هما قلب البلاد التى تصدر منها التعاليم الوهابية . ومع أن المسلمين يعتقدون أن الحج فرض عليهم ، يؤدونه مرة فى حياتهم على الأقل ، فإن الوهابيين يرون أن زيارة المقامات فى البلدين ضرباً من الوثنية . ويصفهم أعداؤهم بأنهم لصوص

(١) هذا قول المؤلف ، غير أن الذى يذكره كثير من المؤلفين ومنهم أمين الريحانى والأستاذ حافظ وهبة والمؤرخ ابن بشر أنه ولد فى العيينة وأن مولده كان فى عام ١١١٥ هـ أو ١٧٠٣ م . (المعرب)

وقطاع طرق يسرقون الحجاج وينهبون القوافل[١] .

وليس يهمنا هنا أن نبحث هل هذه التهم صحيحة أو باطلة ؛ وإنما الذى يهمنا هو أن هؤلاء المسلمين ذوى الصلابة والشدة فى الدين أصبحوا قوة سياسية كبيرة لا تخضع لسلطان تركيا خليفة المسلمين . وقد ارتكبوا أثناء عصيانهم من ضروب القسوة ما ضاعف الحقد الناشئ من اختلافهم مع عامة المسلمين فى العقيدة الدينية .

ولم يكن هذا هو السبب الوحيد الذى حمل السلطان على العمل لقطع دابر الفتنة التى أثار عجاجها سعود بن عبد العزيز ، بعد أن آلت إليه زعامة الحركة الوهابية ، فأصبح بفضل حماس دعاتها صاحب الأمر والنهى فى جزيرة العرب . ولم يكن السلطان سليم من الملوك الأقوياء ، ولكنه وَد لو استطاع أن يضرب عصفورين بحجر واحد . فقد كان يغار من محمد على بعد أن أيقن أن قوة تابعه أمست خطرا عليه ؛ فظن أنه إذا استطاع أن يغرى محمداً عليًّا بمهاجمة سعود ، فإنه لا بد أن يصاب بخسائر مادية شديدة ، وإن أمكنه أن يخضد شوكة الوهابيين . وأراد سليم أن يحبب إلى محمد على القيام بهذا الواجب ، فأخذ يصور له ما سوف تنال مصر من الفخر إذا تمكن الباشا من أن يطهر الإسلام من هذا الوباء الذى ساط على الحرمين الشريفين[٢] . ولم يكن من الصعب على محمد علىّ أن يدرك أن مصر هى خير مكان يستطاع الهجوم منه على الوهابيين . لكن إغراء السلطان له وملاطفته إياه لم يحملاه على استعجال الأمور . وكان الباشا على جهله لحِناً حاضر البديهة ، وتشهد التقارير التى أخذ يرسلها تباعا إلى الباب العالى بقدرته على أن

(١) لو أن هؤلاء الأعداء زاروا بلاد العرب الآن لرأوا بأعينهم الأمن المستتب والنظام الشامل . (المعرب)

(٢) هذا ما لا يقره أحد عليه . (المعرب)

يرد على الرسائل التى دعته فيها الآستانة لمقاتلة الخارجين على الدين ، برسائل من نوعها و بنفس لهجتها . و إليك مثالاً واحدًا من حذق الباشا ومهارته ، منقولاً عن تقرير لم ينشر بعد مؤرخ أول ربيع الثانى من عام ١٢٢٤ وهو يوافق ١٨ من أغسطس سنة ١٨٠٩ .

« إذا اخترقت أبصارنا حجب الغيب التى لا يعلم سرها إلا الله ، ورأينا ما حل بالحرمين الشريفين من بلاء ، وما فرضه العصاة فى الحجاز من مذلة ومهانة على زوار الكعبة والقبلة الشريفتين ، معقد آمال المسلمين ومتعبدهم ، إذا فعلنا ذلك أسفنا وتملكتنا سورة الغضب على أولئك العصاة المفسدين . و إنا لنبتهل إلى الله عز وجل أن يعجل بإنقاذ الأرض المقدسة من شرهم وسيئ أعمالهم »[1] .

ومضت عدة شهور بعد كتابة هذا الخطاب قبل أن يرى محمد على أن الأعمال التى كان يقوم بها إبراهيم فى صعيد مصر ، من جباية الضرائب ومطاردة المماليك ، قد تقدمت تقدماً يسمح إلى طوسن بالسير لقتال الوهابيين . على أن محمداً عليا السياسى العملى المحنك الذى كان يحرر إلى الآستانة تقارير مفعمة بالحماس الدينى الملائم لأغراضه الرسمية ، كان فى قرارة نفسه مسلماً صادق الإيمان يعنى ما يقول . فإذا كان فى هذه التقارير قد ضرب على هذه النغمة السابقة لأنها مما يتفق مع أغراضه ، فإنه لم يكن مع ذلك خادعاً مراوغاً .

وكلما مرت الشهور والسنون والاستعداد للحملة قائم على قدم وساق زاد محمد على يقيناً بأنه يعد جند الحق ليقضى على أنصار الزيغ والضلال . وما لبث أن اعتقد فى نفسه أن العناية الإلهية قد سخرته لقتال الخارجين على الإسلام ، وتخليص البلاد المقدسة من أذاهم . ولم يكن يخفى عليه أنه مقدم على حرب عدو ،

(١) المحفوظات الملكية المصرية (القسم التركى) وثيقة رقم ١٦ .

يعتقد أن القتل هو جزاء كل من لا يؤمن بعقيدته مسلماً كان أو مسيحيا . ولم يكن يجهل ، وهو الفطن الأريب ، أن جنوده لن يرحموا عدوا إذا وقعوا فى يده نكل بهم أشد تنكيل .

وكان مع طوسن رجل اسكتلندى يدعى توماس كيث Thomas Keith كان قد أسر هو وكثير من زملائه الذين اشتركوا فى الحملة الإنجليزية الأخيرة على مصر ، ونجا من القتل حين اعتنق الإسلام وسمى نفسه إبراهيم ؛ ثم اقتتل هو ومملوك صقلى من مماليك سيده المقربين ، فقتل المملوك وولى هارباً ؛ ثم التجأ إلى زوجة محمد على أم إبراهيم وطوسن فأقنعت ولدها الأصغر باستخدامه فى جيشه . ولكنه قبل أن يسافر حكم عليه بالإعدام لإهمال بسيط وقع منه فى أداء واجبه ، فأبى الجندى الشجاع أن يسلم نفسه ، وظل نصف ساعة يصد عن باب حجرته عدداً من الهاجمين عليها . ثم قفز من النافذة ولجأ مرة أخرى إلى نصيرته الشفيقة الأولى ، فاسترضت طوسن عنه . وأعجب الأمير بشجاعته فأمر بتعيينه رئيساً على مماليكه الأخصاء . وما زال يجد فى أداء واجبه حتى أصبح فى شهر إبريل من عام ١٨١٥ حاكماً على المدينة المنورة . ولما كان كيث كمعظم أهل بلده مطبوعاً على حسن التصرف فى الأمور المالية ، أضحى على مر الزمن قائماً على أموال جيش طوسن . ثم قضى نحبه فى ميدان القتال مثخناً بطعنات السيوف[1] .

وإذا كان طوسن قد رزق رجلاً اسكتلنديا يشرف على شؤونه المالية ، فقد كان فى جيش سعود امرأة أخت غمرات ، وهى أرملة أعرابية بقومية اسمها

(١) مذكرات عن البدو والوهابيين جمعها المرحوم جون لويس بركهاردت فى أسفاره فى الشرق وطبعها فى لندن هنرى كلبرن ورتشارد بنتلى فى عام ١٨٣١ الجزء الثانى ص ٢٣٤ ، ٣٤٢ .

غالية[١] . كان زوجها من شيوخ تُربة ؛ وكانت هى من سراة قومها ، أوتيت من الثروة حظا لا يعادله حظ عشر من العشائر المجاورة لها . وكانت ندية الكفين تهب المال والزاد للمحتاجين من قبيلتها ؛ وكان بيتها مقصد كل وهابى أمين ، تمد لهم فيه الموائد ، ويعقد زعماؤهم فيه المجالس . وكانت هذه السيدة المسنة نافذة البصيرة ، مسددة الرأى ، تشترك مع الرجال فى تصريف الأمور . وكان لها فى معظم الأحوال الكلمة العليا والرأى المطاع . وبالغ الناس فى تقدير ذكائها وأصالة رأيها ، حتى قالوا إنها ساحرة وإنها تستطيع بسحرها أن تجعل النصر على الدوام حليف شيوخ الوهابيين[٢] .

وليس من قصدنا أن نفصل القول هنا فى حروب طوسن مع الوهابيين ، وحسبنا أن نقول إنه احتل مكة والمدينة والثلاث المدن الأخرى فى الحجاز ؛ ولكن الحملة بوجه عام أخفقت فى بلوغ غرضها ، وبقيت القبائل الضاربة فى الجبال التى تخترق البلاد من الشمال إلى الجنوب تدين بالطاعة للأمير سعود[٣] .

وقابل محمد على هذه الهزيمة بنزوله إلى الميدان بنفسه . فعهد بمقاليد الحكم فى الوجه القبلى إلى ابنه إبراهيم وفى الوجه البحرى إلى حسن بك . ثم سافر إلى جدة فوصلها فى سبتمبر من عام ١٨١٣ . ولم يمهل القدر سعوداً حتى يتلاقى مع الباشا الدهى شديد المحال ، بل وافاه الأجل على أثر حمى تفشت وقتئذ فى نجد . وخلفه ابنه الأكبر عبد الله وكان جنديا صادق البأس خضع له أكابر الوهابيين فى حياة سعود .

(١) البقوم من القبائل العربية الكبيرة مقرها جبل حضن وأطرافه حتى تربة والحرما وأصل البقوم من الأزد . وكانت غالية أرملة أحد مشايخ سبيع وقد هاجت بنفسها جيوش مصطفى بك فهزمتهم . (المعرب)

(٢) مذكرات عن البدو الخ الجزء الثانى ص ٢٦٩ .

(٣) المصدر عينه الجزء الثانى ص ٢٧٤ ، ٢٤٩ .

وليس من السهل علينا أن نتنبأ بما كان يحدث لو تلاقى محمد على وعبد الله ؛ لكنهما لم يتلاقيا . وذكر فلكس منجن Felix Mengin ، الذى كان وكيل القنصل الفرنسى فى القاهرة فى أوائل حكم محمد على ، سبب رجوعه فقال إن الباشا سمع وهو فى قلب جزيرة العرب أن نابليون قد فر من منفاه فى جزيرة إلبا فرجع الباشا مسرعاً إلى القاهرة ليدافع عن مصر[١] . لكن موريه Mouriez وهو كاتب فرنسى آخر يكذب هذه القصة وإن لم يذكر سبباً آخر لعودة محمد على[٢] . وثم شخص ثالث هو Burckhardt الذى أقام فى بلاد العرب وحصل على الحقائق من مصدرها ، وهو يعزو رجوع الباشا الألبانى إلى أسباب لا تعلى من قدره إذ يقول :

« لم يجد طوسن أباه فى المدينة ؛ وذلك لأن محمداً عليا لما أيقن أن الموارد المادية والوسائل الحربية فى شمال الحجاز لا تبعث فى نفسه أملا فى الفوز ، استقر رأيه على أن يترك أمر الحملة نجاحها أو إخفاقها لولده ، لكيلا يعرض ما جناه من حسن السمعة إلى النقصان »[٣]

ومهما يكن سبب نكوص الباشا ، فإن طوسن وعبد الله أيقنا أن الخير كل الخير فى أن يجنحا إلى السلم ؛ فاتفقا على أن يتخلى الوهابيون عن كل مطالبهم فى الأرض المقدسة ، على أن يترك المصريون لعبد الله كل ما استولوا عليه من مدن القصيم . وبذلك كان الصلح تراضيا بين الطرفين ، وكانت أهم شروطه ما طلبه طوسن وهو أن يرد العدو كل النفائس التى استولى عليها الأمير السابق

(١) منجن فى كتابه السالف الذكر الجزء الثانى ص ٤٨ .
(٢) موريه فى كتابه السالف الذكر الجزء الثانى ص١٥٧ .
(٢) بركهاردت فى كتابه السالف الذكر الجزء الثانى ص ٣٤٧ .

سعود من الحجرة النبوية بالمدينة[١] . وإذ كانت الفئتان المتحاربتان تدينان بالإسلام ، وإن كانت كلتاهما تعد الأخرى خارجة عليه ، فإنهما لم يغب عنهما وهما توقعان شروط الصلح قول الله عز وجل فى كتابه الكريم :

« قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ . وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ »[٢]

وكان المصريون والوهابيون يعدون المعاهدة أشبه شىء بهدنة غير محدودة الأجل ، يستطيع كلاهما أن ينقضها متى أراد . لذلك لا نعجب إذا رأينا محمدا عليا وعبد الله يعدان العدة لمواصلة القتال . وكان أول ما فعله الباشا أن اختار لجيشه قائداً عاما فى مقدوره أن يهاجم الوهابيين فى عقر دارهم ، ويطفئ جمرتهم فى قصبة ملكهم فى قلب جزيرة العرب . نعم إن هذا الزعيم الفطن قد حمل ابنه طوسن ذلك العبء الثقيل ، عبء الاتفاق مع العدو ، ولكنه حمله إياه وهو أكثر الناس علماً بالصعاب الحربية التى تعترض فتح الحجاز ؛ ولذلك حرص الحرص كله على أن يختار فى هذه المرة أليق الناس للقيام بهذه المهمة ، فعقد لهذا الغرض فى القاهرة مجلساً من كافة القواد والوزراء والضباط ورجال الحكم ؛ وذلك لأن الباشا وإن كان هو الحاكم بأمره كان رجلا دمقراطيا تسود بلاطه روح الأخوة وحب الخير . فلما أقبلوا بحشدهم وحفلهم أخذ يذكر لهم الغرض من اجتماعهم ، ويشرح لهم خططه الحربية ؛ ثم أشار إلى تفاحة ملقاة

(١) المصدر عينه الجزء الثانى ص ٣٣٦ .
(٢) سورة الأنفال الآيتان ٣٧ ، ٣٨ .

أمامهم وسط طنفسة كبيرة مفروشة فى أرض الحجرة ، وقال لهم : « من استطاع منكم أن يصل إلى هذه التفاحة فيتناولها بيده ثم يأتينى بها من غير أن تطأ قدمه الطنفسة ، وليته قيادة الحملة على نجد » .

وكم من أمير رطب العود استلقى على الأرض وطرح جسمه على الطنفسة وقدماه تكادان تلمسان حافتها ، ثم مد ذراعيه لكى يصل إلى الفاكهة . لكن التفاحة كانت بمنأى عنهم لا تصل إليها أيديهم ؛ وأخذ كل منهم يدبر حيلة جديدة للوصول إلى غرضه ، ولكنهم عجزوا جميعاً عن نيل مأربهم . ثم قام إبراهيم أكبر أبناء محمد على ، وكان قصير القامة ممتلئ الجسم ، فانحنى إجلالا لوالده وعرض أن يجرب حظه .

وكان دأب إبراهيم أن يكون أول من يسخر من شكله . وقيل إنه لما تقدمت به السن وثقل جسمه عيره رجل من الناس بضخامة بطنه ، فكان جوابه : « لست أجهل أن بطنى كبير ولكنه ليس مملوءاً بالطعام والشراب بل بالحذق والدهاء[1] » . فلما تقدم إبراهيم إلى والده بمطلبه فى صباح ذلك اليوم من عام ١٨١٦ سخر الحاضرون كلهم منه وأيقنوا جميعاً أنه لا محالة عاجز عن بلوغ غايته . ولكن سخرهم منه لم يلبث أن انقلب إعجاباً به ، حينما أخذ يطوى طرف الطنفسة إلى الداخل حتى أصبحت التفاحة فى متناول يده . ثم مد يده فأخذها وحملها إلى والده فولاه قيادة الجيش المصرى لساعته قبل أن يقوم من مقامه .

ويقص صبرى هذه القصة فى كتابه الموثق المسمى الإمبراطورية المصرية فى عهد محمد على[2] ، ولكنه لا يؤمن بها ؛ فى حين أن پالجريف Palgrave

(١) مصر منذ الفتح العربى فى عهد محمد على تأليف پريس داڤن ، أرمن طبعة فرمن ريدو باريس ١٨٧٧ ص ٣٦ .

(٢) الإمبراطورية المصرية فى عهد محمد على والمسألة الشرقية طبعة جتنر باريس سنة ١٩٣٠ .

الإنجليزى الذى تقول عنه دائرة المعارف البريطانية إنه من اليسوعيين ، ثم أصبح من الدبلوماسيين ، والذى زار أواسط جزيرة العرب فى عام ١٨٦٢ — ١٨٦٣ ، نقول إن پالجريف يروى أن أهل نجد قصوا عليه هذه القصة ، وأنها من الأخبار المتواترة هناك . وسواء أصحت أم لم تصح فإن أمرها لا يهمنا ، إلا من حيث دلالتها فى كلتا الحالين على ما كان يعتقده فى مقدرة ابراهيم أبناء أعدائه السابقين .

ولما أتم محمد على اختيار قائده العام أخذ يتحين ساعة العمل ، غير أنه لم يطل به الانتظار ؛ فإن عبد الله لم يرد النفائس التى استولى عليها سعود من الحجرة النبوية فى المدينة ، بل بلغ من أمره أن أرسل رسلاً من قبله إلى القاهرة يحملون رسالة جاء فيها :

« لم يبق لدينا شىء من النفائس التى وجدها والدنا سعود عند قبر النبى وحملها معه ، بل بيعت كلها و بددت . أما حكم البلاد فاسمحوا لنا أن نقول إن فى استطاعتكم أن ترسلوا رسولاً من قبلكم يجمع لكم الأعشار »[1] .

فأغضب هذا الرد محمداً عليًّا وأجاب الرسل بقوله : « قولوا لمولاكم إنى عارف بأنه قد حصن المدن وحشد الجند وتأهب للقتال ، وليس هذا كله بخافٍ علىّ . فأبلغوه نصيحتى أن يأخذ حذره ، ويحتاط لنفسه ، لأنى مرسل إلى الحجاز ولدى إبراهيم لينزل ببلادكم الخراب والدمار ، و يأتى إلىّ بأهلها أمواتاً أو أحياء »

وهكذا أبدت الرغوة عن الصريح وعرف كل من صاحبه ما يبطنه له . أما الصعاب التى كان لا بد أن يواجهها إبراهيم فتصورها حكاية الطنفسة التى قصصناها على القارئ من قبل . لقد عجز محمد على وطوسن من قبل عن الوصول إلى قلب بلاد العدو عجزا تاما . ولاقى الغزاة من الصعاب ما تصوره قصة پالجريف

(١) منجن فى كتابه السالف الذكر الجزء الثانى ص ٦٧ .

صدقت أو كذبت . وكان هم إبراهيم أن يخترق بجيشه الصحراء الواسعة التى تكتنف بلاد نجد من جميع الجهات ، والتى قال الرحالة الإنجليزى فيها : « كم من فاتح عجز عن الوصول إليها ، واضطر إلى الابتعاد عن قواعده الحربية الأمينة ، وقطع الصلة التى لا بد منها بينه وبين هذه القواعد . على أن القائد إذا وصل إلى قلب الهضبة ، لا يلقى من المقاومة الجدية أكثر مما تلاقيه اليد التى تمتد لتناول التفاحة متى وصلت إليها »[١] .

وعرف إبراهيم خطر الواجب الذى اضطلع به فأخذ يستعد له من فوره بتؤدة وأناة . وأعد والده العدة لإنشاء أسطول واف بغرضه مزود بما يلزمه من سفن النقل ؛ وجمعه فى ميناءى السويس والقصير ؛ وفيهما أيضاً حشد جيشه . ولسنا نعرف عدد هذا الجيش بالضبط لأن كل ما لدينا من الإحصاءات مضطرب لا يشفى غلة الباحث ؛ وكل ما نستطيع أن نثبته واثقين أن إعداد الحملة قد استلزم ستة شهور كاملة ، وأن الوالى ضم إلى أركان حرب إبراهيم المسيو ڤاسير Yassière وهو فرنسى خدم فى جيش نابليون ، وأن الفرقة الطبية كان قوامها أربعة من الإيطاليين هم اسكوتو Scoto وچنتيلى Gentili . وتوديسكينى Todeschini وششيو Socio[٢] .

أما عبد الله فقد عرف من جواب رسله أن الحرب آتية لا ريب فيها ؛ فبادر بإرسال أحد عيونه إلى مصر يستطلع طلعها ليكون على علم باستعداد عدوه الحربى . فلما عاد ربيئته إلى نجد عقد عبد الله مجلسا عاما وأمر الرسول أن يقص على القوم ما رأى ، وهاك ما حدث منقولاً عن پلجريف :

---

(١) كتاب پلجريف السالف الذكر الجزء الثانى ص ٤٨ .

(٢) موربيه فى كتابه السالف الذكر الجزء الثانى ص ١٨٦ .

« وكان الرجل البائس قد انطبع فى خياله البدوى ما رآه من قوة مصر الحربية وجيوشها الجرارة ، وما شاهده فيها من أبهة ونظام ؛ فأخذ يصف لمواطنيه ما هاله من قوة الباشا وكثرة جمعه ومدافعه وفيالقه وركبانه ومشاته وكل ما أعده لغزو نجد ؛ فذعر القوم وامتقع لونهم . فلما رأى ذلك عبد الله قطع عليه قوله وأمر بهذا المحدث الذى تجاوز الحد فى صدقه ، فسيق إلى النطع حيث ضربت عنقه لساعته جزاء له على وهنه قوة المسلمين »[1] .

ولم تغفل أم إبراهيم عن تقوية قلب ولدها ؛ ولكنها لم تلجأ إلى مثل ما لجأ إليه عبد الله من الصرامة ، بل أخذت تدعو الله أن يجعل النجاح حليفه . ولما هم بتوديعها فى اليوم الثالث من سبتمبر سنة ١٨١٦ ، عانقته وناطت برقبته عقدا من الجوهر ، وسألته أن لا ينزعه من عنقه ليلاً ولا نهارًا حتى يهديه إلى الضريح الشريف . فوعدها إبراهيم أن يعمل برغبتها ، وأقسم أن لا يحلق رأسه حتى تضمه إلى صدرها بعد أن يعود إليها ظافرا[2] .

وأبحر الحاج المجاهد من ميناء القصير فى الثالث والعشرين من سبتمبر عام ١٨١٦ . وبعد ستة أيام من هذا التاريخ ألقت سفائنه مراسيها فى ميناء ينبع . وما كاد يدخل المدينة المنورة فى اليوم التاسع من شهر أكتوبر حتى أسرع إلى قبر المصطفى ووقف أمامه خاشعاً ، ثم وضع عليه العقد الذى أهدته إليه أمه . ولشد ما سر بهذه الهدية الثمينة شيخ الحرم وهو أغا حالك السواد ، فبسط كفيه إلى السماء ودعا الله جهرة قائلا :

« أيها النبى الكريم : ها هو إبراهيم باشا ابن محمد على قد خر ساجداً

(١) كتاب بلجريف السالف الذكر الجزء الثانى ص ٤٩ .
(٢) منجن فى كتابه السالف الذكر الجزء الثانى ص ٧٨ .

أمامك ؛ وقد قدم إلى ديارنا ليهلك أعداء دينك فأيده اللهم بنصرك وهبه القدرة على تأييد شرعك ونصرة كتابك المقدس وتمزيق شمل العصاة الوهابيين »[١].

وأكمل القائد الشاب هذا الدعاء بقوله : « أيها النبي الكريم ! لقد أعانني الله أنا إبراهيم بن محمد على باشا على استرجاع البلدين المقدسين مكة والمدينة ، وجئت ضريحك الشريف ضارعاً متوسلاً أطلب المعونة فيما أنا مقدم عليه من الحرب والكفاح . فاجعل اللهم النصر حليفي ، ووفقني إلى معرفة مقاصد العصاة ، فإن أعدائي هم أعداؤك . وأعني على تمزيق شملهم وتشتيت جموعهم فإني لن أدخل سيفي في غمده حتى أفرق جمعهم »[٢].

ثم تملكت إبراهيم روح الحماس الديني فأقسم أن يعتق جميع من ملكت يمينه من الأرقاء بيضاً أو سوداً — وإن لم يكن في مقدوره بطبيعة الحال أن يرد إلى الأغا المسكين ما فقده . ونذر أن لا يذوق طعم الخمر من ذلك الحين . ويقال إنه عمد إلى زجاجات النبيذ التي كانت في مخازن ميرته فألقى بها في النار[٣]. على أن هذه الغيرة الدينية لم تقلل من صرامة النظام الذي كان سائداً في الجيش المصري ، فقد كان الإعدام جزاء كل من يعصي أمره . وعرف العرب منه ذلك فأدركوا أنه إذا كان يقسو كذلك على رجاله ، فسيكون أشد قسوة عليهم ، فاستولى الرعب على قلوب الضعفاء منهم .

ورأى عبد الله أن من الحكمة أن يسعى إلى استرضاء إبراهيم وإن لم يكن

(١) كان بودنا أن ننقل إلى القراء نص دعاء شيخ الحرم وإبراهيم ولكن بلجريف قد أخذه عن البدو في شبه الجزيرة وكتبه بالإنجليزية فاضطررنا لترجمته عنه واستبدلنا لفظ الجلالة في آخره باسم النبي صلى الله عليه وسلم كما هي عادة المسلمين في الدعاء .

(٢) بلجريف الجزء الثاني ص ٣٠ .

(٣) مصر في القرن التاسع عشر تأليف إدورد جون طبعة پول بوازارد ص ٢٧٦ .

بطبيعته رعديداً خوار العود ؛ فقرر أن يرسل من قبله رسولا يفاوض إبراهيم فى شروط الصلح ؛ ولكنه لم يجد ذلك الرسول لأن الناس كلهم تذكروا ما حل بالجاسوس الأول . وفى آخر الأمر تقدم أحد الشيوخ وعرض أن يقوم بالمهمة مشترطا أن يسمح له بقراءة الرسالة التى سوف يحملها . وكان عبد الله قد كتب إلى إبراهيم على ورقة قذرة سمراء رسالة قصيرة خالية من كل معانى المجاملة ، ملؤها الازدراء والتحقير ؛ فكانت لذلك أبعد الأشياء عن الوثائق الدبلوماسية التى تتطلبها هذه الظروف . فلما قرأها الشيخ التفت إلى رئيسه وقال :

« إننى إذا حملت هذه الرسالة كنت كالساعى إلى حتفه بظلفه . فإذا شئت أن أذهب فأذن لى أن أكتب الرسالة باسمك و إلا فاعفنى من الذهاب » .

فرضى بذلك عبد الله وكتب الشيخ رسالة تنم عن كفاية وحنكة سياسية وختمها الزعيم الوهابى بعد طول تردد . فلما استقبل إبراهيم الرسول خاطبه بلهجته القاهرية التى لم تفارقه طول حياته :

« ماذا جئت لنا أيها الرجل من سيدك النجدى . . . » فقدم الرجل إلى إبراهيم رسالته ؛ فألقى عليها نظرة سريعة ثم ضحك بأعلى صوته ساخراً مستهزئاً ، والتفت إلى أحد أتباعه وقال له : « يا غلام هات الخطاب الذى أتى به إلىّ منذ أربعة أيام سعدون ... القادم يخطب ودنا » فجئ له بالخطاب و إذا به رسالة كتبها سعدون ومعها خطاب مرسل إليه من عبد الله يقول فيه : « لا يغرنك عير مصر ونهيقه فإنه لا يملك لك نفعاً ولا ضرا »

و بعد ذلك قال إبراهيم : « هاك ما يكتبه مولاك عنى إلى أصدقائه » ثم أشار إلى الرسالة اللطيفة التى كانت ملقاة أمامه على الأرض وقال : « وهاك ما يكتبه إلىّ — قل لهذا . . . إنى سآتيه بالجواب بنفسى فى الدرعية . والآن

اذهب من أمامى وخذ معك هداياك ؛ ولو لم تكن رسولاً لأمرت بضرب عنقك » .

ورأى النجدى أن لا سبيل إلى الملاينة أو الاعتذار فلم يحاول شيئاً منهما ، بل عاد مسرعاً إلى عبد الله وفكر وهو فى الطريق فى الخطة التى يسلكها . وكان يعرف أنه إذا أخبره بحقيقة ما حصل له كان جزاؤه القتل لا محالة ؛ فباع فرسه وما كان معه من هدايا الصلح بثمن غال ؛ ولما بعد عن معسكر إبراهيم اشترى بالمال اثنى عشر عبداً نوبيا ألبسهم لباساً حسناً ، وسار بهم إلى داخل البلاد ، وأخذ يذيع أينما حل أنهم هدايا من الباشا إلى أمير نجد عربوناً للاتفاق والصداقة .

ووصل الشيخ إلى الدرعية والمؤذن يدعو المؤمنين إلى صلاة المغرب . وأقبل على عبد الله وهو بين أكابر قومه ، ورأوا بأعينهم الرسول وحاشيته الفخمة ، فلم يشكوا فى أن إبراهيم يلتمس الصلح . ولما فرغ الشيخ من حديثه ، وعلت أصوات أهل المدينة بالتهليل والتكبير ، قال عبد الله : « والآن فلنطلع على كتاب ذلك المارق » فأجابه الرسول كما يقول بلجريف : « إن الخطاب يحتوى على أمور لا تصح تلاوتها إلا فى مجلس خاص ؛ وتوسل إلى عبد الله أن يؤجل قراءة الرسالة حتى يعقد ذلك المجلس . فرضى بذلك عبد الله كارهاً ، واستصحب الرسول إلى قصره يحيط به وزراؤه وخواص حاشيته ومن خافهم العبيد » .

ثم يقول نفس المؤلف بعد ذلك : « فلما احتواه الديوان طلب عبد الله الخطاب مرة أخرى ؛ ولكن الرسول المخادع الفطن رد عليه بقوله : إن الخطاب يحوى أسراراً خاصة لا يصح أن تراها غير عينيك أو تسمعها غير أذنيك ؛ فدهش عبد الله وأمر رجاله بالانصراف . فلما انفرد الرسول بسيده ورأى أن لا مفر من إطلاعه على جلية الأمر قال له : لن تلقى جواباً على مقترحاتك إلا ما سيأتيك به إبراهيم باشا بنفسه فى الدرعية ؛ فإذا كنت رجلاً حقا فأعد له ما استطعت من

قوة : . ثم أخذ يصف إلى عبد الله كل ما رآه وسمعه ، واعتذر له عما اضطر إليه من خداعه ساعة من الزمن لكيلا يثبط همم أتباعه ويروعهم بتنبيههم إلى خطر وصول العدو إلى عاصمتهم . وختم حديثه بقوله : لكن الخطر داهم وستضطر إلى خوض غمار الحرب فى أرض نجد نفسها » .

هذه القصة قد سمعها بلجريف فى المكان الذى قصها فيه الشيخ ، ومن أفواه أناس يجزمون بصحتها وإن كان قد مضى على وقوعها عشرات السنين . ويؤكد هذا الكاتب أن الشيخ لم يمسه سوء ، وذلك لأن عبد الله لم يكن بالأخرق ولا بالجبان ، فصرف همه إلى حشد جيوشه ، وأخذ ينتظر عدوه عند رؤوس الطرق النجدية المؤدية إلى داخل البلاد .